الثقافة العربية كما ينبغي أن تكون

نور الدين بن بلقاسم

مداخلتي أيها السادة والسيدات ستكون اليوم حسب المخطط التالي:

١ ـ المعاني المعجمية لكلمة «ثقافة».

٢ ـ المتعلم ليس بالضرورة مثقفاً.

٣ ـ ثقافة الأصالة وثقافة الاغتراب.

٤ ـ ثقافتنا كما ينبغي أن تكون في المرحلة القادمة:

أ ـ توفير الانتاج الثقافي الرفيع.

ب ـ تنقية الساحة الثقافية من الطفيليين.

ج ـ إيجاد مناخ من الأمن والازدهار الثقافيين.

٥ ـ ضرورة الوفاق بين رجل الثقافة ورجل السياسة.

٦ ـ حاجتنا إلى ثقافة واعية.

وسنبدأ تحليلنا بالعنصر الأول:

١ ـ المعاني المعجمية لكلمة «ثقافة»:

في معجم لسان العرب لابن منظور[١]

ـ ثَقِفَ الشَّيْءَ ثَقْفًا وَثِقَافًا وثُقُوفَةً: حَذَقَهُ

ـ وَرَجُلٌ ثَقْفٌ لَقْفٌ إذا كَانَ ضَابِطًا لِمَا يَحْوِيهِ قَائِمًا بِهِ.

ـ ويُقال: ثَقِفَ الشَّيْءَ وَهُوَ سُرْعَةُ التَّعَلُّمِ.

ـ ويُقَالُ: غُلَامٌ لَقِنٌ ثَقِفٌ أيْ ذُو فِطْنَةٍ وَذَكَاءٍ، والمراد أنّه ثَابِتُ الْمَعْرِفَةِ بِمَا يُحْتَاج إلَيْهِ.

ـ وفي حديث أمّ حَكِيمٍ بِنْتِ عبدِ المُطّلب قالت:

إني حَصَانٌ فما أُكَلَّمُ، وَثَقافٌ فَمَا أُعَلَّمُ:

أي أنّ معرفتها ثابتة لا تحتاج معها إلى تعليم

ـ وَثَقِفَ الرَّجُلَ = ظَفِرَ بِهِ، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[٢].

وقال تعالى في محكم التنزيل: ﴿فأما تثقفنّهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم﴾[٣]

فمعنى (ثقف) في الآيتين: يعني ظَفِرَ بِالْعَدوِّ في الحَرْبِ.

ـ والثِّقَافُ: حديدة تُسَوَّى بها الرِّماحُ المُعْوَجَّةُ.

ـ والتّثقِيفُ: التَّسْوِيَةُ ـ التَّسْقِيمُ لِلْمُعْوجّ.

ـ والمثّقف: هُو المُسْتَقِيمُ[٤].

(١) ابن منظور ـ لسان العرب: ٣٦٤ ـ ٣٦٥ تقديم العلامة الشيخ عبدالله العلايلي اعداد وتصنيف: يوسف خياط ـ دار لسان العرب ـ بيروت (بلا تاريخ).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩١.

(٣) سورة الأنفال: الآية: ٥٧.

(٤) أنظر نفس المعاني في «القاموس الجديد» لعلي بن هادية وصاحبيه: ص ص ٢٣٨ ط. الشركة التونسية للتوزيع ـ تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ١٩٨٢.

فممـا سبق نلاحظ أن كلمـة (ثَقِفَ) تشتمل على معنيين أساسيين:

أ ـ المعنى الموسوعي للعلم:

ويظهر ذلك في الحذق للمعارف ودقّة ضبطها، وسـرعة تعلّمها، والعمل على ثباتها وتنوّعها.

ب ـ المعنى الأخلاقي:

ويتلخّص في التهذيب والتقويم والاستقامة.

هـذان المعنيان الأسـاسيان أيهـا السادة للثقـافة يُمَثّـلان عنصرين أساسيين في رسم ثقافةٍ واجبةِ الوجـود ذاتِ هَوِيـة عَربيّةٍ اسْلاميّةٍ ثابتةٍ، لا تتغيّر بتغيّرِ رِياحِ الموضاتِ الثَّقَافِيَّةِ المُخْتَلِفَة في البلدان المناوئة لنا، والسَّاعِية إلى إبقـائنا أمّـة اسْتِهْلاكٍ لا أمّةَ إنْتاجٍ.

فالثقافة التي ينبغي أن تكون، نريدها أن تشتمل على (كل ما فيه استنارةٌ للذهن، وتهذيبٌ للذوق، وتقويمٌ للأخـلاق، وتنميةٌ لملكة النقـد النزيـه والحكم الواعي المتثبّت المبنيّ على الاستـدلال والبـرهـان لـدى الفـرد والمجتمـع على السواء[٥].

فـالمعنى الأخلاقي هـو الذي يجسّم الـركيزة الأسـاسية للثقافة العربية الإسلامية.

والمعنى الموسوعي للثقافة يخدم المعنى الأخلاقي...

٢ ـ المتعلم ليس بالضرورة مثقفاً:

ففي منظور الثقافة العربية الإسلامية أن كل امرىء يتوسّع في العلوم والمعارف ويصعد إلى درجاتها الرفيعةِ، فإنه في آن واحد يرتفع في سلّم الأخلاق، وإذا لم يؤدّبـه علمُه إلى هذه النتيجة فإنه يكون متعلّماً وليس بمثقف[٦].

ذلـك أن غايـةَ الثقافـةِ السليمة هي بنـاء الإنسان الخيّـر الشـاعرِ بمـا له ومـا عليـه، والتمسـكِ بـالإيثـارِ لا الإثـرة، والمحاولِ دائماً أن يلتمس الأعـذار للآخـرين حتّى يصفح عن أخـطائهم، ويتغاضى عن زلّاتهم، ليستـطيع بـذلك أن يعايشهم، ويتعاون معهم في السّراء والضراء.

ولخلق هَـذا الإنسان النمـوذجي في مجتمعنا الحـديث فإنه لا يكفي أن نعلّمَ الناسَ ونطوّر مداركهم الفكرية والعقلية في المعاهد والجـامعات، ولا يكفي أن نجعلهم يكتسبـون معارف مختلفة بالتعليم والتكوين، وإنما يكون ذلـك بتنمية الجـوانب الروحيّـة فيهم، بتربيـة نموذجيـة تعتمد الإسـلام منـطلقاً، والعـربية ركيـزةً، والتـراثَ الفكـريَّ والحضـاريَّ العربيَّ الإسلاميَّ إطَاراً، ومادّةً لإنتاجنا الثقافي في وسائلنـا الإعلامية المختلفة المكتوبة منها والمسموعة والمرئيّة.

إن هذا الإنسان الذي ينشأ في مناخ اجتماعيّ أصيلٍ هو الذي يعمل على إيجـاد ثقافـة أصيلة تعكس للعالم صـورةَ الحضـارة التي هو منهـا، وهو الـذي يعمل على أن يكـون أصيلاً في مواقفه، انطلاقاً من أنّ لكلّ حضارةٍ ثقافةً[٧] تتميّز بـالخصوصّيـةِ والتفرُّدِ والـطرافَةِ، وأنَّ من هـذا التنـوع بين الثقافات يتوفّر الثراء في الحضارة الإنسانية.

فالمتعلم إذن ليس بالضرورة مثقّفاً، لأنَّ التَّعَلُّمَ اكتسابٌ ومعرفةٌ للقراءَةِ والكتابةِ والثَّقَافَةَ سُلوكٌ اجتماعي قويمٌ نَاتِجٌ عَنْ تَهْذِيبٍ للحَواسّ والغَرَائِزِ وَتَقْوِيمٍ للسُّلُوكِ.

٣ ـ ثقافة الأصالة وثقافة الإغتراب:

فالمجتمع الواثق من نفسه، الساعي لبناء غده، المعتمدُ على إمكانياته، هو الذي تُشَاعُ فيه الثقافة الأصيلة التي هي منه، وتُسْتَبْعَدُ عَنْه ثقافةُ الاغتراب، لأنّ ذلك يعينه على بناء ذاته، اعتماداً على أن الثقـافة الأصيلة هي ثقـافة **تـأسيس**، بينما ثقافة الاغتراب هي ثقافة **تسييس** يعتمد فيها القـائمون بـالأمر على تلهيـة الناس عن واقعهم بكـل أنوع المـلاهي المبتذلة...

وثقافتنا في المرحلة الراهنة هي في كثير من وجوهها ثقافة تسييس لأنّها كانت وما تزال تشـد الناس بـالترفيـه الرخيص

(٥) يوسف خياط ـ معجم المصطلحات العلمية والفنية: ١٠٥ طبع دار لسان العرب ـ بيروت ـ لبنان (بلا تاريخ).

(٦) نـور الدين بن بلقـاسم ـ الثقافـة والحضـارة ـ العمـل الأدبي: ٦ ـ الخميس ١٩٨٧/٨/٦.

(٧) ورد في المعجم الفرنسي ما يلي:
Culture: n.f. Ensemble des aspects intellectuels d'une civilisation.
Ensemble des connaissances acquises.
Paul Robert - Micro Robert - 256 Paris 1971.

أكثر من أن تساهم في بناء الاقتصاد والفكر والأخلاق، ولذلك كانت وما زالت ثقافة مستلبة وغير أصيلة.

٤ ـ ثقافتنا العربية كما ينبغي أن تكون في المرحلة القادمة:

نحن نرغب من القائمين على حظوظها أن يجعلوا منها ثقافة تأسيس وذلك يكون بالعمل على توفير العناصر التالية:

أ ـ توفير الانتاج الثقافي الرفيع:

وهو الانتاج الذي يصبّ بمختلف فروعه من أدب ومسرح وسينما وأغنية ورسم ونحت في قناة الثقافة بمفهومها الأخلاقي.

«فإذا ما قرأنا روايةً أو شاهدنا لوحة جميلةً أو مسرحيةً رائعةً أو استمعنا إلى أغنيةٍ رفيعةٍ أو شاهدنا شريطاً راقياً فإننا نخرج بعد المشاهدةِ أو الإستماع إلى أثَر من هذه الآثار ـ بإحساس نبيل يجعلنا نصمّم من جديد ونصرّ على أن نكون أحسن ـ في وضعنا الماديّ المعنويّ أكثر مما كنّا نحن فيه.

إن ذلك التصميم الذي حرّك أعماقنا هو علامة على سمّو ذلك الأثر الفنيّ. فالإنتاج الفنيُّ الممتاز هو الذي يشحن أعماقنا باستمرار بالشعور النبيل، وبالحبّ العظيم، ذلك الحبّ الذي يشمل الإنسانية كلَّها، بحيث يجعلنا الأثَر الفنيُّ الرفيعُ نندفع بكل عزم وثقة في النفس إلى تثقيف أنفسنا بأنفسنا، وتثقيف محيطنا أو تقويمه، وإلى محاربة الشرّ السائد في العالم، وإلى تركيز الخير فيه، وبثّه بين الناس.

أما الإنتاج الثقافي الهابط هو الذي لا يجعلنا نسمو على أنفسنا، وهو الذي لا يبعدنا عن نداء الحيوان فينا، فهو انتاج يهيّج فينا الغرائز، ويجعلنا نفقد الثقة بالآخرين، كما يجعلنا الأثر غير النبيل نعمل على زيادة الشر في العالم، وذلك لأنّه لا يطهّر عواطفنا من شوائبها، بل يبلّد إحساسنا بالحياة والناس، وذلك بما يوحيه إلينا من شعور اللامبالاة بالقيم الإنسانية وعدم احترام الحدود الاجتماعية[٨].

(٨) نور الدين بن بلقاسم ـ الثقافة والحضارة ـ العمل الأدبي ٦ ـ تونس الخميس ٦ آب ١٩٨٦.

ب ـ تنقية الساحة الثقافية من الطفيليين:

ولا يكون الانتاج الثقافيُّ رفيعاً ونبيلاً ـ كما ذكرنا ـ إلا بتنقية الساحة الثقافية من الدخلاء عليها والطفيليين فيها.

ولا يعني هذا أن نَحْرِمَ فئةً معيّنةً من المواطنين من ممارسة حقها في التعبير عن ذاتها بالشكل الذي تراه، وإنّما أعني بذلك أن نحكّم المستوى في كل إنتاج من انتاجات الثقافة. والمستوى الأدبي والفني لا يحصلان عند منتج الثقافة إلا بالمستوى العلميّ الذي يعتمد أساساً على التعليم والدراسة والاستيعاب لكل ما يدرس ـ وبهضمه والنسج على منواله، ثم تجاوزه.

فمرحلة التجاوز التي يصل إليها المنتج لأي نوع من أنواع الأشكال الثقافية هي مرحلة الإبداع... وهي المرحلة التي يجب أن نختار من بين الذين وصلوا إليها من يمدّون وسائلنا الإعلامية المكتوبة منها والمسموعة والمرئية بكلّ الإنتاجات التي ترفع ذوق المواطن، وتهذّب سلوكه، وتوسّع معارفه؛ وتنمّي وعيه، وترقّق حسّه، وتشحذ عزيمته، وتوسّع مجال مَثَلِه الأعلى، ليكون باستمرار ملتصقاً بإنسانيته، عاملاً على تغيير ما به وما بالآخرين نحو الأحسن والأمثل. وبهذا يمكن أن تختفي مظاهر الثقافة الهابطة المتمثلة في الأغاني الرديئة من حيث اللحنُ والكلماتُ، والمسرحُ الذي يغلب عليه التهريج، والنصوصُ التي تدّعي الشعر وهي ليست من الشعر في شيء، والمقالاتُ الصّحفية التي تنتشر في كثير منها الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية والتراكيب السقيمة، والتعابير الخاطئة.

ج ـ إيجاد مناخ من الأمن والازدهار الثقافيين:

وتطور الثقافة في الوطن العربي مرهون بتوفّر عدّة عوامل أساسية منها:

١ ـ توفير الأمن الثقافي الذي فيه وبه تنطلق أصوات المبدعين من خرسها، وتنطلق عزائم الذين وقعوا تحت طائلة الخوف، وذلك حتى يستطيعوا التعبير عن فكرهم بحرية وبالشكل الذي يمكن أن يعبّروا به.

والأمن الثقافي لا يدوم وتترسّخ تقاليده إلاّ بتوفّر الحرية

الفكرية المتمثلة في «حرية التعبير والنقد والتساؤل، بحثاً عن الحقيقة، وتطلُّعاً إلى الأفضل والأعدل»[٩].

٢ ـ تكريس مبدأ الاختلاف في الحياة وفي العمل الثقافي[١٠].

٣ ـ تشبيب هياكل المؤسسات الثقافية، وذلك بتشبيب القائمين عليها[١١] من حيث تأصيلهم وتجذيرهم في تراثنا وحضارتنا ـ تفادياً للإنبات ـ ومن حيث تكوينهم التكوين المتواصل لكي يكونوا على وعي تام بما يقع في الساحة الثقافية القطرية والعالمية.

٤ ـ الابتعاد بقدر الإمكان في الحياة الثقافية ـ عن بيروقراطية التسيير[١٢] وذلك لأنّ الثقافة مثل الحياة تستمدّ قوّتها وعنفوانها من التغيير والحركة، والبيروقراطية ضدّ الحركة، ولذلك فهي إذا خالطت الثقافة عملت على قتلها.

٥ ـ تشجيع الاندفاع التلقائي للمبدعين واستثماره في تأسيس ثقافة واعية، ترتكز على تعبير المبدع عن مشاغل النفس والمجتمع، وذلك حتى يساهم رجل الفكر ورجل الفن في تقريب زمن الوحدة العربية المنشودة وذلك بإثراء الجانب الوجدانيّ للإنسان في الأمة، وبتجديد همّته، وصياغة رؤاه المستقبلية صياغةً جديدةً[١٣]، تتماشى مع هذا الهدف العظيم.

٦ ـ الحد من فولكلورية الثقافة، والعمل على الاهتداء إلى ثقافة فاعلة انطلاقاً من انتسابنا للحضارة العربية الإسلامية.

وهذا لا يكون إلّا بمراقبة ومراجعة الأنماط الثقافية المستوردة التي سمّمت لغتنا وفنوننا وآدابنا، وهمّشت الثقافة العربية الإسلامية في ديارنا، التي هي ـ أساساً ـ ثقافة التربية والتهذيب والتكوين؛ فنتيجة الإستلاب الفكري والإضطراب العاطفي صارت الثقافة عندنا في كثير من جوانبها ـ ثقافةَ استهلاكٍ وارتزاقٍ وشحنٍ للغرائز بكلّ ما ينّمي في الفرد شعورَ العداء نحو الآخرين.

على أنّ هذه المراقبة أو هذه المراجعة لا يمكن أن تتحقق إلّا بمراجعة هياكل الجامعات العربية ووسائل التربية ومناهج التعليم فيما لأنها تركز على تلقين المعلومات ليوم الامتحان لا على تكوين الفكر النقدي التحليلي، مما جعلها تخرج الموظفين لا المثقفين، ومما جعلها كذلك تساهم في الإستلاب الفكري والثقافي. أضف إلى ذلك مراجعة وسائل الإعلام والمؤسسات الثقافية بصفة عامة على أن توضع هذه المؤسسات بيد رجال يجمعون بين العمل المجدي، والإخلاص للوطن «ويتعاملون مع الابداع والمبدعين في حرية وكرامة وإباء»[١٤].

٧ ـ الحد من ارتفاع سعر الكتاب حتّى يكون في متناول الجميع، وذلك يكون بدعم حقيقي وغير مشروط له، حتى يستعيد مكانته في قلوب الناس وحياتهم اليومية[١٥] باعتبار أنّ كلَّ ثقافةٍ لا يكون الكتابُ أساسَها ومنطلقَها هي ثقافةٌ لا قيمةَ لها، وهي بالتالي ثقافةُ (تسييس) لا ثقافة (تأسيس).

٨ ـ أن تقع معاملةُ الإنتاجِ الثقافِيّ من أدبٍ ومسرحٍ وسينما ورسم وأغنية في كل قطر عربي مثل الانتاج الاقتصادي[١٦]؛ وهذه المعاملة تكون بتصنيع الانتاج الثقافي وترويجه في الدّاخل والخارج، فَتُصْبحُ الثقافةُ بذلك رافداً من روافد الاقتصاد الوطني، لا عبئاً عليه.

(٩) الميداني بن صالح ـ رفع الحجر عن الكتب ـ جريدة الصباح: ٨ ـ تونس الأربعاء ١٨/١١/١٩٨٦.

(١٠) محمد أحمد القابسي ـ حرية التفكير ـ جريدة الصباح: ٨ ـ تونس ١٨/١١/١٩٨٧.

(١١) عبد الجليل التميمي ـ مستقبل حضاري منشود ـ ج الصباح: ٩ تونس ١٨/١١/١٩٨٧.

(١٢) عبدالحليم المسعودي ـ التطهير ـ جريدة الصباح: ٨ ـ تونس ١٨/١١/١٩٨٧.

(١٣) محمود التونسي ـ ممارسات مؤسفة ـ جريدة الصباح: ٩ ـ تونس ـ ١٨/١١/١٩٨٧.

(١٤) عبد الرؤوف الخنيسي ـ الابداع في حرية وكرامة ـ جريدة الصباح: ٩ ـ تونس ١٨/١١/١٩٨٧.

(١٥) محمد رضا الكافي ـ أمنيات ـ جريدة الصباح: ٩ ـ تونس ١٨/١١/١٩٨٧.

(١٦) نور الدين بن بلقاسم ـ تغيير جذري ـ ج الصباح: ٩ تونس ١٨/١١/١٩٨٧.

٩ ـ ضرورة الحفاظ على الآثار الإسلامية في كلّ قطر عربي وما قبل الإسلامية، وذلك بإحصائها ورسم خريطة لمواقعها، ووضع عسس عليها في أماكن تواجدها، والعمل من قبل معاهد الآثار على إبرازها والتنقيب عليها، وذلك لتجسيم مختلف الحضارات التي تعاقبت على الأمة العربية وساهمت في نحت كيانها.

١٠ ـ ضرورة الاعتناء بالمخطوطات وذلك يكون:

أ ـ بمنع التجار من تهريبها خارج كل قطر.

ب ـ بمنع الأجانب من سرقتها لبيعها في الخارج أو لوضعها في متاحفهم الوطنية. فالمخطوطات النادرة مثل الآثار النادرة تعطي قيمة للقطر والأمة، وقد أقدمت على سرقتها غير دولة استعمارية في القرن الماضي وفي القرن الحالي. فسرقة المخطوطات والآثار من الوطن العربي كانت عمليةً استعماريةً منظَّمةً، لعب فيها جهلُ مالكي المخطوطاتِ والاغراءاتُ الماليةُ دوراً حاسماً، وهي عملياتٌ تهدف في الأساس إلى تفريغ الوطن العربي قطراً قطراً من محتواه الحضاريّ والعلميّ، وترك العرب بخاصّة والمسلمين بصفة عامّة محتاجين حتى لمعرفة تراثهم إلى الغرب مثلما هم في حاجة إليه لاستيراد صناعاتِه وتكنولوجياته المختلفة.

وفي هذا الصدد وحفاظاً على المخطوطات من الضياع لا بد أن تقوم أقسام المخطوطات في الأقطار العربية بخطوة جريئة تتمثّل في جمع المخطوطات التي يمتلكها الخواص وذلك بشرائها بأيّ ثمن، لأنه ليس مضموناً أن يحافظ الخواص على هذه المخطوطات لقلّة معرفتهم بالوسائل العلمية الواقية لها من التلف.

فالمخطوطات الكثيرة الموجودة في بيوت الناس لا بدّ من الإعلان عن تسجيلها في سجلات الحيازة، بوصفها ثروة وطنية. ولا بد أن يرافق عمليةَ التسجيل هذه تنقلاتُ المختصّين في المخطوطاتِ والمعتنين بها في المدن والقرى والأرياف بحثاً عن الذين يمتلكونها دون أن يُعْلِنُوا عنها.

ولا بدّ كذلك من ندوات تلفزيونية وكتاباتٍ صحفية تشرح للناس قيمةَ المخطوطات وأهميتَها، وذلك حتى تولّد هذه الندواتُ الوعيَ الوطنيَّ لتسهيل عملية التسجيل والحيازة.

وبعد تسجيل المخطوطات وحيازتها من قبل الدولة لا بدّ من تصنيفها في فهارس بحسب مواضيعها، فتصنّف مثلاً في الفهارس التالية:

١ ـ فهرست المخطوطات اللغوية المتخصصة في النحو والصرف والمعاجم وفقه اللغة.

٢ ـ فهرست مخطوطات الفقه.

٣ ـ فهرست مخطوطات الطب والبيطرة والصيدلة.

٤ ـ فهرست مخطوطات الموسيقى والغناء والسماع.

٥ ـ فهرست مخطوطات الحساب والهندسة والجبر.

٦ ـ فهرست مخطوطات الفلك والتنجيم.

٧ ـ فهرست مخطوطات التاريخ والتراجم والسير.

٨ ـ فهرست مخطوطات الأدب العربي.

٩ ـ فهرست مخطوطات الحديث النبوي وعلومه.

وبعد الفهرسة للمخطوطات لا بد من التعريف بالنوادر والفرائد منها، وتحديدِ عُمُرِهَا، وذكر عما إذا كانت فريدة من نوعها في العالم، وذلك لتعريف الباحثين العرب المتخصصين بها، للاطلاع عليها أو تحقيقها[١٧].

٥ ـ ضرورة الوفاق بين رجل الثقافة ورجل السياسة:

على أن المنطلقات السابقة التي اقترحتها لتغيير ما بحال الثقافة عندنا لا تتحقق إلا إذا وضع المثقف ورجل السياسة اليد في اليد، وتعاونا على ما فيه مصلحة الجميع لخير الجميع. وسعى السياسي عندنا في الحاضر والمستقبل إلى تعميد الثقافة وتنميتها، وتجنب كل ما يمكن أن يُهَمّشَهَا، وآعتبار أن الثقافة الرائدة هي التي تمهّد طريق السياسة وهي التي تُوجِدُ المواطن الصالح.

فكلُّ قمع للثقافة والمثقفين أو كلُّ تدجين لهما بآسم

(١٧) يوسف مطر ـ مجلة الدستور: (٤ ـ ١١) ـ ٤ ـ ١٩٨٨، من حديث أجراه مع عالم المخطوطات العراقي أسامة النقشبندي.

السلطة أو الأيديولوجيا في أي مجتمع ليس لصالح ذلك المجتمع ولا لصالح الحضارة التي يسعى لبنائها وتركيزها؛ فالسياسي الذي يدخل التاريخ من بابه العريض هو الذي يعمّد الثقافة ويحميها ويُجِلُّ أَهْلَهَا ويستشيرهم في شؤون البلاد والعباد.

فالسلوك السلطوي الذي يَعْمُد إلى تدجين المثقفين واخضاعهم لخدمة السلطة قد برهن التاريخ على عدم نجاحه في تكبيل رجل الثقافة الذي ظل بآستمرار قادراً على التجدّد والإضافة والتأثير[١٨]، وفَضْحِ الممارسات السلطوية الخاطئة.

إنّ التحولات الاجتماعية الكبرى في الحياة الإنسانية تحققت دائماً بفضل لقاء رجل الثقافة برجل السياسة، أي لقاء الفكر بالممارسة؛ وفي الفترات التي يتحوّل فيها هذا التآلف بين السياسي والمثقف إلى تنافر، تتحول حركية المجتمع إلى سكون، ويستحيل تفتّحه ـ لكل ما هو ثابت ومتطور في الحضارة والفكر ـ إلى آنغلاق[١٩].

فالسياسة هي التي تنفّذ، أمّا الثقافة فهي التي تمد التحولات المجتمعية بالحيويّة، والثقافة بدورها تستوحي من هذه التحولات مادَّتَهَا وعناصرَ تطوّرها الصالحةَ لكل إبداع أصيلٍ.

فلكي نتطوّر بسرعة ونطور الحضارة والفكر والعلم في أمتنا علينا ألّا نعتبر الثقافة في المشروع السياسي (الغائب الكبير) أو (الابن الضال)[٢٠]، لأن اعتبارنا هذا لها معناه تعطيلٌ للفكرِ، وغَلْقٌ لباب الحرية، ووضعٌ لأقدار الناس ومصائرهم على جناح المجهول.. فالمثقّف المبدع النزيه مع نفسه ومع قومه والبعيدُ عن الأيديولوجيات المستوردة يُعْتَبَرُ سنداً لرجل السياسة الواعي والمخلص في سعيه لبناء الدّولة العصرية، وإقامةِ مجتمع الكفاية والعدل. لأن المُثَقَّف بإنتاجه الأصيل يلقّح المجتمع بعنصر التغيير الهادىء والعنيف، ويغيّره من الداخل، ويشحذ وجدان الناس فيه بالشعور النّبيل، وينفي منه الثّباتَ والاستقرار اللذين يؤدّيان بالمجتمع إلى أن يكون سكونيا وغير متجدّدٍ.

٦ ـ حاجتنا إلى ثقافة واعية:

فنحن في هذه الفترة من حياتنا الاجتماعية والسياسية نحتاج إلى ثقافة واعية، ذات هُويّةٍ عربيةٍ إسلامية ثابتةٍ، تتماشى مع متطلبات مرحلتنا الراهنة، وتوفّر أسباب القوة الحقيقية التي تستمد منها الإرادة الجماعية للأمّة الجُهْدَ والاندفاعَ نحو تحقيق الذات والراحةِ النفسية، والسموِّ العَقْلِيّ، وهو ما يتيح لأمتنا أن تقف نِدًّا للأمم المتقدمة في الفكرِ والعلم والتكنولوجيا.

وهذه الثقافةُ الواعيةُ لا بدَّ أن تتمثل في أعمال إبداعية ناضجةٍ وراقيةٍ شكلاً ومضموناً، ـ تبلّغ بفضلها أجيالُنا الجديدة رسالتها الحضارية ورؤيتها لواقع الإنسان والكون ـ إلى العالم.

فالثقافة التي نريد هي التي تحمي هُويتَنا العربيَّةَ الإسلامية لأنّها نابعةٌ منها، وخارجةٌ من لَحْمِهَا ودَمِها، فتُدافِعُ عنها، وتَسْتجيبُ لتطلعاتنا، وتُعمّقُ الوَعْيَ الحضاريَّ فينَا بأبعاده الوطنية والقومية والإنسانية[٢١]. بحيث تغيّر هذه الثقافةُ الجديدةُ النظرةَ السائدةَ عند الكثيرين منا والمتمثلةَ في أنَّ النهضة الحقيقيةَ لن تتاح لنا إلا إذا (لحقنا بأسرع وأحدث العربات في قطار) الموضة الثقافيةِ والفكرية والحضارية الغربيةِ. إن الذين ينزعون هذا المنزع يسعون إلى أن يلبسونا كساءً لم يقس على قياسِنا، وهم يسعون إلى تغيير عاداتِنا الطريفةَ وتقاليدَنا الأصليةَ، وذلك حينما يَعْمُدُون إلى محاولة قولبتنا في قالب الغرب المستعار.

نحن لا نرفض الفكرَ ولا الثقافةَ المفيديْنِ من أيّة جهةٍ كانت لأنَّ الفكرَ والعلمَ والحضارةَ مشروعٌ إنسانيٌّ مشتركٌ،

(١٨) حميد سعيد ـ هل الثقافة العربية متخلفة؟ ـ مجلة الدستور: ٤٣ ـ الاثنين ـ ١٩٨٨/٣/٢٨.

(١٩) حميد سعيد ـ هل الثقافة العربيةمتخلفة؟ـ مجلة الدستور: ٤٣ ـ الاثنين ـ ١٩٨٨/٣/٢٨.

(٢٠) منصف وناس ـ اجابة السؤال الكبير ـ جريدة الصباح: ٨ ـ تونس ـ الأربعاء ١٩٨٧/١١/١٨.

(٢١) الميداني بن صالح ـ رفع الحجر عن الكتب ـ جريدة الصباح: ٨ ـ تونس الأربعاء ١٩٨٧/١١/١٨.

ولكننا نرفض أن نكون نسخةً مطابقةً من غيرنا، لأننا نحن عرب مسلمون ننتمي إلى عالم متخلف، فإذا ما قلّدنا في كلّ شيء فإننا بتعوّدنا على التقليد واستهلاك الجاهز دون جَهْدٍ، نخْسِرُ كلَّ شيء، لأننا وقتها لن نستطيع أن نساهم بما عندنا من خصوصيَّةٍ وطرافة في بناء مشروع الحضارة العالمية.

فبناء ثقافتِنا الجديدةِ على أساس المفهوم الأصيل للثقافةِ العربية الإسلامية ـ والذي بسطته في أوّل هذه المداخلة ـ والهادف إلى أن يكون كل انتاج ثقافيّ هو لبنة صالحة لبناء الإنسان خُلُقاً وفكراً ووجداناً وذوقاً وإحساساً، و «هو الكفيل بصنع الإنسان الجديد عندنا، وهو الكفيل بتطوره الاجتماعي والاقتصادي والعلمي، لأنه إذا توفر يربّي فيه الضميرَ، ويهذّبُ فيه الإحساسَ والذوقَ، الذي بدونه يعجز المرء عن التمييز بين ما له وما عليه...

وبدون الضمير والذوق والاحساس ـ هذه العناصر التي تخلقها الثقافة الراقية النبيلة ـ ينقلب الإنسان إلى حيوان أسطوري، يأكل الأخضر واليابس، بآعتناقه لعقلية: «أنج بنفسك» أو عقلية: «أخط رأسي واضرب». أو عقلية «دبّر رأسك» ـ هذه العقلية الرديئة ـ التي لا تتماشى مع الثقافة العربية الإسلامية ـ قد تسرّبت إلينا واستقرت فينا وجلست بيننا بفعل غزو ثقافة الاستهلاك في الغرب لنا في ديارنا، فغيّرت هذه العقلية السالبة ما بنا، وزرعت الحذر فينا من بعضنا بعضاً، وأفقدت كلًّا منا الثقة في الآخر، فرّقت بسببها أخلاق الكثيرين منا، وتضخّم فيهم «الأنا» على حساب «الأنت» فآهتزت بذلك ركائز المجتمع العربي، وتخلخلت بِنْيَتُه، وحدّقت بسبب ذلك الأخطار فينا.

ولكي ننجو بأنفسنا وبأمتنا، ونبني كياننا وحضارتنا على ركائز العلم والأصالة، عَلَيْنَا أن نركّز ثقافتنا في المرحلة القادمة على المفهوم العربيّ الإسلامي للثقافة والذي بسطناه آنفاً، لأنّه هو المفهوم الأصيل والكفيل بتغيير وضعنا البشري وجداناً وسلوكاً واجتماعاً واقتصاداً، وذلك انطلاقاً من أنّ الأمّة الراقية هي نتاج ثقافة راقية[٢٢]، تغير بناء كيانها إلى الأحسن، وتطوّره، بآعتبارها ثقافة تأسيس، دون أن تُلْهِيَهَا بكل ما هو غثٌّ وغيرَ نافعٍ من ثقافة مجتمع الاستهلاك التي ستسبّب عاجلاً أم آجلاً في سقوط الحضارة(*).

(٢٢) نور الدين بن بلقاسم ـ الثقافة والحضارة = العمل الأدبي: ٦ ـ تونس ١٩٨٧/٩/٦.

(*) بحث قدّم إلى مؤتمر الأدباء العرب في طرابلس.

صدر حديثاً

العالم والعرب عام ٢٠٠٠

نظرات مستقبلية في بروز القوى والاتجاهات العالمية الجديدة وتأثيرها على المصير العربي في القرن الحادي والعشرين

تأليف

الدكتور محمد جابر الأنصاري

منشورات دار الآداب